أين يمكن وضع ثورة ابن عبد الكريم الخطابي في سجل التاريخ

تعد الصحافة واحد من أهم مصادر التاريخ في عصرنا الحديث. فالصحافة يكون؛ سجلا للاحداث وهي ماتزال حية. تمد المؤرخ بثروة هائلة من الوقائع التي تهم الفترة التي ينوى تأريخها. على أن الصحافة لاتشكل موردا للاحداث فحسب بل كذلك تبث للمواقف التي يقفها قطاع من الرأي العام حيال الأحداث المعنية.

ومما لاشك فيه أن مناسبة في عظمة الذكرى الرابعة عشرة لوفاة المجاهد الكبير، بطل الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، لتحمل على التساؤل عن موقف الصحافة المغربية والاتحادية بالاخص من الفجيعة التي ألمت بالعالم العربي والاسلامي من جراء وفاة عبد الكريم بالقاهرة بتاريخ 6 فبراير 1963 على اثر سكتة قلبية لم تترك أي فرصة للعلاج.

قصد ايجاد الجواب عن هذا السؤال المشروع رجعنا إلى الصحافة الاتحادية التي كانت تصدر في هذه الفترة ، فإذا بنا نلقاها قد أولت أهمية قصوى لخبر الوفاة ولصاحبه ولثورته التحريرية العظيمة. فنحن نقرأ في عدد التحرير رقم 945 المؤرخ بيوم الخميس 12 رمضان 1382 موافق 7 فبراير 1963، عنوانا على ثلاثة وبحروف ضخمة فوق اسم الجريدة يقول:« الخطابي قائدة الثورة المغربية الاولى في لأمة الله» وتحت هذا العنوان عنوانان اخران على ثمانية اعمدة هما أيضا يقولان «سكتة قلبية مفاجئة تسبب وفاة المجاهد صباح الأربعاء بالقاهرة» جثمان الفقيد سيتم نقله إلى المغرب ليدفن بين المجاهدين في جبال الريف» وقد جاء بعدد التحرير الذي طبع شعارها هذا اليوم بالمداد الأسود تعبيرا عن الحداد، مزينة بصورة للمجاهد على عمودين وازاء الاخبار بالوفاة مع برقية التعزية التي وجهها الاتحاد الاشتراكي (الاتحاد الوطني آنئذ) وأسفل الصفحة من نفس العدد مقال على اربعة اعمدة يحمل هذه العناوين: « وفاة المجاهد عبد الكريم الخطابي خسارة كبرى للمغرب العربي والعروبة وللتيار التحرري في العالم كله» وفي هذا المقال الذي كتب يوم وفاة قائد ثورة الريف محاولة لابراز مكانة هذه الثورة لافي تاريخ نضال الشعب المغربي التحرري فحسب، بل في تاريخ نضال الشعوب المعاصرة كلها.

وتواصل التحرير اهتمامها الكبير بهذا الحدث التاريخي الكبير فنقرأ في العدد الموالي منشيطا صرح المارشال ليوطي المقيم العام الفرنسي الاول بالمغرب، أثناء نشوب الثورة الريفية، صرح بما يلي:

« أرى أن خطر الحالة الحاضرة في الريف يتجاوز افريقيا الشمالية، فان العالم الاسلامي يرقب الحرب بين ابن عبد الكريم واسبانيا باهتمام عظيم. والمعروف أيضا أن افريقيا الشمالية كلها تنظر بعين الاهتمام والعناية الى ثورة الأمير ابن عبد الكريم. وان الذين يثيرون الفتن يتوسلون بتقهقر الاسبان المتواصل مع ما عندهم من الجيوش والمدافع ومعدات القتال أمام الوطنيين الريفيين»

ذلك ماصرح به المارشال ليوطي أب الحماية الفرنسية. وفي هذا الموضوع أيضا صرح أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني هو المستر «كنورش» معلقا على ثورة عبد الكريم وصداها في الخارج فقال:

« ان ابن عبد الكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد اليه حتى صار الناس في الهند وبغداد والقاهرة يرون فيه رجلا يصح أن يكون أميرا للمؤمنين وحاملا لسيف الاسلام. فاذا أصبح والحالة هذه في مركز يدعو فيه إلى الجهاد في افريقيا الشمالية وبلاد العرب والاناضول فان انجلترا وفرنسا وايطاليا ستتعرض لاخطار عظيمة، ولا يبعد أن تمس هذه الأخطار دولا أخرى غير هذه.»

تلك شهادة رجلين سياسيين كبيرين. احدهما فرنسي عبر عن آثار الثورة الريفية في مستعمرات فرنسا وعن أخطارها على الاستعمار الفرنسي. والثاني انجليزي عبر عن صدى الثورة الريفية في المستعمرات البريطانية من الهند إلى القاهرة. كما سجل إثارها في شمال افريقيا. وهي شهادة تكشف عن ذلك التأثير الكبير والصدى الواسع الذي كان لثورة بطل التحرير محمد عبد الكريم الخطابي في ارجاء العالم العربي والاسلامي. وهي شهادة تكفي عن كل تعليق من جانبنا في الموضوع.

وبعد..

وبعد، فلقد حاولنا في المقالات الماضية أن نرسم للقارئ فكرة عامة عن ثورة بطل التحرير محمد ابن عبد الكريم. ونحن نعترف أننا لم نوف الموضوع حقه، ولا يمكن لنا أن نفعل ذلك على صفحات جريدة، فثورة ابن عبد الكريم، هي أكبر من أن ترسمها، كاملة واضحة، مقالات سريعة.. فتلك مهمة الباحثين والمؤرخين والكتاب عموما. ولعل هؤلاء يقومون ببعض واجبهم نحو ابن عبد الكريم وثورته. فلقد حان الوقت. ان لم يكن قد فات، لتطرح ثورية الريف على بساط الدرس والبحث والتسجيل.

على ثماني أعمدة، فوق شعار الجريدة الذي يعلن الحداد: الجمهورية العربية المتحدة تنظم لفقيد العروبة جنازة الابطال» وتحت اسم الجريدة نقرأ العنوان الكبير التالي: « على صبري نائب رئيس الجمهورية يترأس بجانب الأمير أحمد موكب جنازة عبد الكريم الخطابي» «الجماهير الشعبية المغربية تلتزم حدادا وطنيا على وفاة البطل الراحل» ثم تمضي التحرير في متابعة صدى الفجيعة في القاهرة والمغرب والجزائر غير أن صحيفة الاتحاد ماتلبث أن تنتقل في الاعداد التالية من الاكتفاء بنشر الأخبار واصداء وفاة البطل الراحل وبرقيات التعازي إلى مجال الدراسات التي تروم التعريف المفصل بشخصية القائد التحرري ومكانة ثورته العظيمة. وهكذا نجد صحيفة الاتحاد تنشر سلسلة مقالات استغرقت الاعداد 950 إلى 954 أي من تاريخ 13 فبراير 63 إلى 18 منه. عمد المقال الأول من هذه السلسلة على «بيان» كيف قامت ثورة ابن عبد الكريم وكيف انتشت. وابرز المقال الثاني ان ابن عبد الكريم كان يريد تحرير الوطن وبناء وضع أسس دولة حديثة. وتحدث المقال الثالث عن هذه السلسلة عن «التنظيمات العسكرية في ثورة ابن عبد الكريم» بينما اهتم المقال الرابع بالجانب الدبلوماسي من هذه الثورة المغربية المجيدة وحاول المقال الأخير أن يموضع ثورة ابن عبد الكريم في سجل التاريخ.

والحقيقة، أن هذه المقالات المتتابعة رغم أنها كتبت بايجاز وعلى عجل فقد قدمت للقارئ صورة جد واضحة عن ثورة الريف وعن شخصية قائدها. ومما امتازت به هذه المقالات بالاضافة إلى الروح النقدية التي اكتنفت التحليل، غزارة المعلومات وقيمة الشهادات المدلى بها. والحقيقة أنه لايمكن تلخيص المقالات الخمسة المذكورة التي خصصتها صحيفة الاتحاد للتعريف بعبد الكريم ولثورته بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، لأن التلخيص قد يعطي فكرة عن مضمونها ولكنه يفقد تلك المقالات روحها النابضة، وحرارتها المتدفقة عبر السطور، وحتى يتأتى للقراء وللشباب بالاخص أن يأخذوا صورة عن الكيفية التي قضاها مغربنا المعاصر، هي على التحديد، ثورة المجاهد عبد الكريم الخطابي ضد الاستعمارين الفرنسي والاسباني نقترح عليهم أن يقرأوا اخر مقال من السلسلة المذكورة، هاهو ذا المقال الخاتمة:

وقبل..

وقبل أن نختم هذه المقالات لابد لنا أن نتساءل، على ضوء ماسجلناه هنا من جوانب العظمة في شخصية ابن عبد الكريم وفي ثورته، قائلين: اين يمكن أن نضع ابن عبد الكريم في سجل التاريخ..؟

اعتقد أن ابن عبد الكريم هو من أولئك العظماء القلائل الذين يسبقون زمانهم بمراحل. فاذا وجدوا من شعوبهم استعدادا لتعدى هذه المراحل نجحوا. واذا لم يجدوا فشلوا. وقد فشل عبد الكريم. ليس فقط لأن الشعب المغربي لم يكن مستعدا لتعدى تلك المراحل، بل أيضا لأن القوى الوطنية المادية والمعنوية الحاكمة فيه انذاك، كان الزمان قد سبقها بكثير، كانت عامل تقهقر تشد الشعب إلى الوراء. وهذا هو السبب الحقيقي في فشل ثورة ابن عبد الكريم، ولكن هذا الفشل ليس فشلا نهائيا، فالاهداف التحررية التي قام من أجلها ابن عبد الكريم ستتحقق عندما تنقضي تلك المراحل الزمنية التي سبق بها ابن عبد الكريم الشعب المغربي. أي عندما يصل هذا الشعب إلى نفس النتائج التي وصل إليها عبد الكريم عام 1921، وعندما يعي «قادة» هذا الشعب قضية التحرر والانعتاق كما وعاها ابن عبد الكريم قبل اثنين وأربعين عاما!!